﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ لها مرحلتان، عامة ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ كلكل سماعاً أو استماعاً للقرآن، والسجود هنا هو غاية الخضوع تذكرا بالقرآن، وأدناه الاستماع له والإنصات إليه كما في آية (٧: ٢٠٤) وآية الأسرى: ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[1].

ومرحلة خاصة هي السجود بالأركان إضافة إلى الجنان حين استماع أو سماع القرآن، وهذه من آياته كآية الحج والعلق والنمل إجماعاً، وآيات أخرى دلالة كما الأسرى وأضرابها، بل ولا فرق دلاليا بينها وبين آية الأسرى، فكل الآيات الآمرة بالسجود هي في الحق من العزائم الواجبة السجود لاستماعها أو سماعها على الأقوى.

﴿إِنَّمَا﴾ هنا حصر بصادق الإيمان، أن التفكير بآيات الله يخرّرهم سجداً لله مسبحين بحمد ربهم دونما استكبار، مما يدل - لأقل تقدير - على وجوب استماع القرآن ككلّ، فإنه أقل سجود له وخضوع، وتركه - إذاً - خلاف واجب الإيمان.

وإنها صورة ووضيئة للأرواح المؤمنة الشفيفة الحساسة اللطيفة المرتجفة من خشية الله وتقواه حين تذكّر بآيات الله، حيث تتلقاها بتوقّز الحس واستيقاظ القلب واستنارة الضمير.

و﴿سُجَّدًا﴾ عرض لحالتهم الخاضعة: الخاشعة في سمع وعقل وقلب أمام ذكريات القرآن، بل هم بكل جوارحهم وجوانحهم يسجدون له صاغين إليه، حاصرين حواسهم وإحساساتهم وإدراكاتهم فيه.

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٧.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ هنا هي فراشات ومكانات النوم، وتجافي الجنوب عنها هو تنحّي الشقق عن مضاجعهم، لا أنهم يأخذون مضاجعهم متجافين فيها، وإنما «عن مضاجعهم» كيلا يأخذهم النوم عن الصلاة الأخرى عشاء أو عصراً، أم وبعد العشاء عن صلاة الليل(١) حيطة على فرض الأوليين ونفل الأخرى كيلا تفوت أو تتأخر عن أوقاتها.

فعن بعض الأصحاب قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها فإن هذه الآية نزلت في ذلك(٢) وكما يروى عنه ﷺ فيها

(١) نور الثقلين ٤: ٢٢٦ عن تفسير القمي حدثني أبي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من عمل يعمله العبد إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز وجل لم يبين ثوابها لعظيم خطره عنده فقال جل ذكره: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ - إلى قوله - نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٦-١٩].
وفيه عن العلل بأسناده إلى أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال في الآية: لعلك ترى أن القوم لم يكونوا ينامون، قال قلت: الله ورسوله وابن رسوله اعلم، قال فقال: لا بد لهذا البدن أن تريحه حتى يخرج نفسه فإذا خرج النفس استراح البدن ورجع الروح قوة على العمل فإنما ذكرهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ...﴾ [السَّجدَة: ١٦] أنزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه من شيعتنا ينامون في أوّل الليل فإذا ذهب ثلثاً الليل أو ما شاء الله فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده فذكر الله في كتابه فأخبرك بما أعطاهم أنه أسكنهم في جواره وأدخلهم جنته وآمنهم خوفه وأذهب رعبهم، قال قلت:
جعلت فداك إن أنا قمت في آخر الليل أي شيء أقول إذا قمت؟ قال: قل الحمد لله رب العالمين وإله المرسلين والحمد لله الذي يحيي الموتى ويبعث من في القبور فإنك إذا قلته ذهب عنك رجز الشيطان ووسواسه إنشاء الله تعالى
أقول: ورواية أهل البيت متظافرة في تفسير الآية بصلاة الليل وهذا من باب التفسير بالمصداق الخفي، وإلا فكيف ينحصر الإيمان الصحيح بصلاة الليل وليست إلّا مندوبة؟.
قد يروى في تفسير الآية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.
(٢) الدر المنثور ٥: ١٧٤ - أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن مردويه عن أنس قال: ... =

قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم..»[(١)].

وقد تعني ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إضافة إلى ترك النوم تداوم الصلاة وذكر الله بين الصلاتين، كما تلمح له ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وكذلك خدمة خلق الله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وعلى أية حال فهي من آيات الفصل بين العشائين، أم والظهرين كما دلت عليه آية النور.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

هذا! وفي حديث قدسي قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..[(٢)].

و﴿نَفْسٌ﴾ هنا هي النفس المؤمنة المراعية حق الله غير المرائية في جاهرة الأعمال لله، كما «هو العبد يعمل سراً أسره إلى الله لم يعلم به الناس فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين»[(٣)].

= وفيه عن أنس قال: نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ فنزلت فينا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾ [السَّجدَة: ١٦].

(١) المصدر - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: تتجافى... فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٧٦ - أخرج جماعة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال قال الله تعالى:... وروى مثله عنه ﷺ سهل بن سعد وأضاف: ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ - الآيتين.

وفيه عنه عن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو أن آخر أهل الجنة رجلاً أضاف آدم فمن دونه ووضع لهم طعاماً وشراباً حتى يخرجوا من عنده لا ينقص ذلك مما أعطاه الله.

(٣) المصدر أخرج جماعة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته.. فقلت: أفرأيت قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ...﴾ [السَّجدَة: ١٧] قال: هو العبد...

وفيه أخرج جماعة عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال: رب أي أهل الجنة أدنى منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له =

ثم ﴿نَفْسٌ﴾ نكرة في سوق النفي تستغرق كل نفس، و﴿أُخْفِيَ﴾ ماضياً دليل صارم أن ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لهم كائنة معهم في ملكوت أعمالهم يوم الدنيا، وإلّا فكيف ﴿أُخْفِيَ﴾ غير الموجود؟ وذلك من براهين أن الجزاء هو نفس العمل بملكوته، إن خيراً فبفضل الله مزيد، وإن شراً فبعدل الله على قدره ولا يزيد.

و﴿مَّآ﴾ المجهول لكل نفس تعم كلا الكيف والكم ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ و﴿أَعْيُنٍ﴾ دون «عينيها» تقرر أن المخفي لكل نفس هو قرة أعين كلّ نفس ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أن زاد الله في ملكوت أعمالهم الصالحة مزيدات ومزيدات.

وإنه تعبير عجيب يشي بمدى الحفاوة الربانية لهؤلاء الأكارم حيث يتولى الله ما يخفيه لهم بنفسه المقدسة إعداد المذخور لهم عنده، الذي لا مطلع لأحد فيه إلّا له، فيظل مستوراً لهم عنده حتى يوم القيامة، ثم يكشف عنه عند لقاءه هناك.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾:

استفهام إنكاري عن هذه التسوية الظالمة بين من كان مؤمناً، ومن كان فاسقاً عن الإيمان، لا كل فاسق إذ يجتمع الفسق العملي مع الإيمان، أم في

= أدخل فيقول كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول: نعم أي رب قد رضيت، فيقال له: فإن لك هذا وعشرة أمثاله معه، فيقول: أي رب رضيت فيقال له: فإن لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فقال موسى عليه السلام أي رب فأي أهل الجنة أرفع منزلة؟ قال: إياها أردت وسأحدثك عنهم إني غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧].

تسوية الجزاء عند البعث[١]، بل ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ فليكن هناك بعث فيه يحاسبون[٢] ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰٓ﴾[٣]:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

«النزل» ما يعدّ للنازل، وهو يوم الحساب بين ثواب وعذاب، فنزل الثواب هو للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[٤] ونزل العذاب للذين كفروا وعملوا الطالحات: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾[٥] ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾[٦].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٧٨ عن قتادة في الآية قال: «لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة».

(٢) المصدر أخرج أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عتبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام أنا أحدّ منك سناناً وابسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك فقال علي عليه السلام: أسكت فإنما أنت فاسق فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا...﴾ [السَّجدَة: ١٨] يعني بالمؤمن علياً وبالفاسق الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وأخرج مثله ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار، وابن أبي حاتم عن السدي وعن عبد الرحمن ابن أبي ليلي» أقول: اتفقت كلمة المخرجين حول هذه الآية على ما نقلناه عنهم قولاً واحداً، كما اتفقت روايات أصحابنا في ذلك قولاً واحداً، وقد أنشأ حسان في ذلك شعره:

أنزل الله والكتاب عزيز ... في علي وفي الوليد قرآناً
فتبوء الوليد من ذاك فسقا ... وعلى مبوّء إيماناً
ليس من كان مؤمناً عرف الله ... كمن كان فاسقاً خوانا
سوف يجزى الوليد خزيا ونارا ... وعلي لا شك يجزى جناناً

(٣) سورة طه، الآية: ١٥.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠٢.

(٦) سورة الصافات، الآية: ٦٢.

﴿فَسَقُواْ﴾ هنا فسق عن كلا الإيمان وعمل الصالحات، فلا تشمل فساق المؤمنين إذ ليسوا من الخالدين أبداً مهما دخلو النار.

و﴿كُلَّمَآ . . .﴾ هنا بيان لأمد الخلود في مأوى النار أنه ما دامت النار: ﴿. . . فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾[1].

صحيح أن المؤمن العادل لا يسوّى بالمؤمن الفاسق في أية نشأة من النشآت ولكن الفاسق هنا يقابل المؤمن ككلّ، فهو الفاسق عن الإيمان، وكما يؤكده ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ وليست النار مأوى فساق المسلمين خلودا فيها مهما دخلها من يستحقها.

أفهم يستوون هنا ويوم الدين في ميزان الحق والعدل المطلق، كلا «لا يستوون» سواء في عدم البعث لو لم يكن، أم في شرعة الحق يوم الدنيا.

ولا تعني ﴿كُلَّمَآ﴾ هنا وهناك الكل الأبدي اللانهائي، وإنما هو ما دامت النار، فإذا فنت النار بمن فيها فلا دور لآلية في نفي الخروج وإيجاب الإعادة لمكان نفي الموضوع ناراً وأهل نار.

نعم لو دلت دلالة قاطعة على الأبدية اللانهائية للنار، لصدق الخلود اللانهائي بهذه الصيغة، ولكنما الأدلة عقلية ونقلية تثبت فناء النار بمن فيها، وتصدق على غرارها هذه الشرطية ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وهي بطبيعة الحال ما دام الموضوع.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾:

«هم» هنا الفاسقون، أوعدهم الله أن يذيقهم من العذاب الأدنى دون

(١) سورة الحج، الآيات: ١٩-٢٢.

العذاب الأكبر، فالعذاب الأكبر هو عذاب القيامة دون ريب، فما هو العذاب الأدنى؟

هل هو عذاب القبر[١]؟ ورجاء الرجوع عن فسقهم فيه غير وارد! أم عذاب في الرجعة؟[٢] والمعذبون فيها هم من محض الكفر محضاً ولا رجاء لرجوعه، إلّا اشتداد كفره! وعديد من الآيات تحيل الرجوع إلى الحياة الدنيا ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾[٣]! أم هو عذاب الاستئصال لمن يستحقه؟ ولا مجال للرجوع - إذاً - إلى الإيمان فإنه الموت بالعذاب فكيف يرجعون؟! إنه «هي المصائب والأسقام والأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا»[٤] «هي لنا زكاة وطهور»[٥] وقد يكون من العذاب الأدنى الدابة والدجال[٦].

فكل عذاب يبقى بعده المعذّب ويرجى رجوعه عن فسقه فهو العذاب الأدنى، ونفس ذلك العذاب حين يشمل المؤمن هو له زكاة وطهور، فأما عذاب الرجعة وعذاب الاستئصال فهما عوان بين العذاب الأدنى والأكبر.

وفي الحق إن العذاب الأدنى رحمة لمن يرجعون عن فسقهم، وللمؤمنين ترفيعاً لدرجاتهم، وزحمة على من لا يرجعون.

---

(١) المجمع وقيل هو عذاب القبر عن مجاهد وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٣١ عن تفسير القمي قال في الآية العذاب الأدنى عذاب الرجعة بالسيف، معنى قوله: لعلهم يرجعون - يعني فإنهم يرجعون في الرجعة حتى يعذبوا - أقول و﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] هي نتيجة ذوق العذاب المترجاة دون العكس المختلق هنا.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٤) الدر المنثور ٥: ١٧٨ - أخرج ابن مردوية عن أبي إدريس الخولاني قال سألت عبادة بن الصامت عن هذه الآية فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها فقال: هي.. قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما هي لنا؟ قال: زكاة وطهور.

(٥) المصدر.

(٦) المجمع في الآية: والأكثر في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أن العذاب الأدنى الدابة والدجال.

وهكذا يتراءى ظلال الرحمة من وراء العذاب الأدنى، قارعة توقظهم وتستيقظ فطرهم وفكرهم حيث يردهم من أكبر العذاب إلى الصواب والثواب.

كما ويتراءى ذل العذاب الأكبر من وراء العذاب الأدنى لمن ظلم وأعرض:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

ذلك المجرم اللّدود الذي لا ينفعه التبشير، ولا ينذره التنذير، ولا يوقظه العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، بل ويعرض عن آيات ربه إذا ذكّر بها، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ قد نجمع له العذاب الأدنى هنا، إلى الأوسط كعذاب الاستئصال في الرجعة أو قبلها، وفي البرزخ، والأكبر في الأخرى، لأنه بالغ في الظلم بآيات الله أسفل دركاته.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾:

هنا عرض إيتاء الكتاب لموسى تسلية لخاطر النبي ﷺ الجريح من تكذيب قومه، فلأنه أشبه النبيين به في كتابه وشرعته ورسالته ووحيه، وأنه يصدقه أهل الكتاب كلهم، يأتي هنا بذكره وإيتاءه الكتاب كما آتاه، وجعله هدى لبني إسرائيل كما جعله هدى للعالمين.

وفي التقاء الرسولين والرسالتين تزول كل مرية من لقاء الله هنا وفي يوم الله، والتفريع في ﴿فَلَا تَكُن...﴾ على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا...﴾ يقرّب هذا المعنى بين ما قد يعنى، فكما الرسالة نفس الرسالة والرسول موسى نفس الرسول محمد ﷺ، والكتاب الرسالي نفس الكتاب مهما كانا درجات، فاللقاء - إذاً - نفس اللقاء، كل يلاقي ربه بما تأذى في سبيله، وتصبّر على عبأه وحمله في حملها.

وأما لقاءه موسى ليلة المعراج أم بعد الموت، ولقاء موسى إياه كذلك، فلا صلة له بإيتاء موسى الكتاب، إذ ليس لزامه ذلك اللقاء، بل هو لقاء الله المذكور في كل كتابات السماء، وكتاب موسى نموذج بارز منها قبل القرآن، فليقرن بالقرآن كما قرن نبيه بنبيّ القرآن، والتشابه بينهما في القضايا الرسولية والرسالية اكثر من كافة المرسلين.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ رسلاً ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ تكويناً وتشريعاً، فإنهم حملة أمر الله، ويهدون دلالة وإيصالاً إلى الهدى بأمر الله ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ فالصبر في قضايا الإيمان على رزاياه هو من معدّات الإمامة والهداية بأمر الله كما ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

فالإيقان بآيات الله، والصبر في مسير الإيقان ومصيره، هما جناحان يطير بهما صاحبه إلى سماء الرحمة الربانية حتى يصير إماماً للناس.

وكلما ازداد الابتلاء في الله، والنجاح فيه تجاه أمر الله، اتسمت دائرة الإمامة وازدادت قوة وبهورا وكما في إبراهيم: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾[1] وكذلك من ذرية إبراهيم حسب درجاتهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[2] وأفضل الأئمة في ذريته هو الرسول محمد ﷺ وقد جعله الله إماماً عليه وعلى كافة الأئمة رسلاً ونبيين وسواهم من المعصومين[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٣) نور الثقلين ٤: ٢٣٢ في أصول الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال قال أبو عبد الله عليه السلام في حفص أن من صبر صبراً قليلاً وأن من جزع جزعاً قليلاً ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق - إلى قوله - فصبر =

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ . . . بِأَمْرِنَا﴾ دليل صارم لا مرد له أن الإمامة ليست إلّا بجعل الله، كما الهداية من الإمام ليست إلّا بأمر الله «لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم»(١) وتأويل هذه الآية يأتي في أئمة المسلمين بعد الرسول ﷺ بأحرى وأولى لأنهم أعلى منهم وأقوى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

طمأنة أخرى لقلبه المترجرج الجريح من بأس قومه الألداء، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بهذه التربية الفائقة الرسالية ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أولاء المختلفين في الحق الذي آتيناك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فصلاً واضحاً ناصعاً لا ريب فيه ولا شك يعتريه، واقعاً لا قبل له، مهما فصل هنا بينهم بآياته البينات، ولكنهم ﴿كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وأما هناك ففيه فصل القضاء الحاسم حيث يزيل كل الخلافات والاختلافات فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

= حتى نالوه العظائم فضاق صدره فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] ثم كذبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـَٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤] فألزم النبي ﷺ نفسه الصبر فتعدوا وذكر الله تبارك وتعالى وكذبوه فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨-٣٩] فصبر النبي ﷺ في جميع أحواله ثم بشر في عترته بالأئمة ووصفوا بالصبر فقال جل ثناءه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فعند ذلك قال ﷺ: الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٣ عن تفسير القمي بسند عن جعفر محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: الأئمة في كتاب الله إمامان: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السَّجدَة: ٢٤] لا بأمر الناس. . .